أبعاد الإنسان الكامل في فكر الأمير عبد القادر الجزائري

(ب)بن احمد إيمان/جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان(الجزائر)
dimiradimen9@gmail.com

1–ملخص باللغة العربية:

يعد الأمير عبد القادر من بين الشخصيات المتميزة التي لمعت في المغرب العربي و الإسلامي على وجه الخصوص، والتي كتب لها التاريخ بحروف من ذهب ،و يتبين ذلك من خلال توضيحه لأهمية الإنسان الذي اعتبره الحجر الأساس في تحقيق أي نهضة أو تحديث أو تنوير ، فالإنسان عندما يكون فاعل حر مستقل له دور في صناعة التاريخ و تكوين حداثة، وهذا ناتج من خلال الملكة التي تميزه عن باقي المخلوقات وهي ملكة العقل التي تمكنه من تحصيل مختلف العلوم و المعارف، فهي منبع العلم و أساسه ، مثل الشمس التي ينبعث منها النور، والرؤية من العين ، فهو سر سعادة الدنيا و الآخرة ، و من ثمة فإن الإنسان الكامل هو خليفة هدا العالم وجامع لجميع الحقائق الإسمية التي تطلب العلم و بالتالي فهو يعد صورة هذا العالم .

2–ملخص باللغة الإنجليزية:

El-Amir Abd-el-Kader is considered as a special celebrity among the other celebrities who shined particularly in the Arabic and Islamic Maghreb, in which the history wrote about it in goldish letters. This can be seen through his clarification of the importance of human who is considered as a foundation stone to achieve any revolution, modernization or enlightenment. When a human is free and independent in his role to make history and the creation of modernity, and this is a result of his aptitude that distinguishes him among the other creatures, it is the mind gift which help him attained various sciences and knowledges. It is the source of science and its fundament, like the sun which spreads the light, and the vision from the eye, it is the secret of the life and hereafter's happiness. And from there, the ideal human is the successor of the world and the collector of all the nominal facts that require science which is the image of this world

3–كلمات مفتاحية: الإنسان الكامل ، العالم ، الحقيقة المحمدية ، الوجود ، التجلي .

4–نص الدراسة:

يعتبر الأمير عبد القادر الجزائري شعلة منيرة في تاريخ الفكر الجزائري كله ، كيف لا وهو الفيلسوف الذي دافع عن العقل كملكة وكاشفا عن مراتبه المعرفية من الكشف الصادق إلى الظن المتوهم ، فلقد عرف بحواره الهادئ و الرزين بحيث نجده يخاطب العقل البشري

بوعي ذلك الفيلسوف المتشبع بالحكمة ، يتحدث عن الإنسان بإعتباره أساس كل عملية حضارية، دون النظر إلى ملته أو لسانه ولا إلى لونه [1] ،وهو يقر كذلك في هذا الصدد بأن نعمة العقل أعظم نعمة تجسد من خلالها مستوى التكريم الإلهي للإنسان [2].

وللكشف عن مكانة الإنسان عند الأمير عبد القادر كما بينها القرآن نفسه ، ذلك أن الله قد خصه بالتكريم وفضله على الكثير من خلقه ، فهو القائل تعالى في حق الإنسان : [ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا][3].

وعليه نجد الأمير يؤكد على أن ما يدل لتكريم الإنسان على غيره من المخلوقات ، من خلال أن الله هيأ له أسباب نيل المراتب العالية و التنقل في المقامات العالية أيضا ، بخلاف الملائكة فإنهم ليس لهم هذا ، إذ ما من ملك إلا له مقام معلوم لا يتعداه، وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الصورة الإنسانية أكمل و أفضل من صور الملائكة الكرام على حد قول الأمير عبد القادر نفسه.

ومن ثمة يتضح لنا أن الله قد فضل بني آدم على كثير من خلقه ، إذ يعتبره هو الخليفة في هذا العالم ، ولابد أن يكون ظاهرا بصورة مختلفة وهي أسماءه و صفاته ، أما إذا نقصه شيء من الصفات و الأسماء فقد نقصه في الخلافة مقدارها،[4] وفي هذا الصدد يقول عنه الأمير :« بأنه بمنزلة الجوهرة النفسية التي تحويها الصدفة ، وخلقه الله في أحسن تقوم وأتم تسوية وتعديل ، وجعل بنيته متضمنة لأسرار جميع الموجودات ، علويها وسفليها ، لطيفها و طثيفها ، فصار لذلك روحانيا جسمانيا أرضيا سماويا ، ولذلك يقال له "العالم الأصغر" فهو نظير العالم المحيط الأكبر معنى معنى ، وحرفا حرفا»[5].

و يمكن الإشارة إلى مفهوم الإنسان الكامل عند الأمير حيث يقول:« الإنسان الكامل الخليفة ، له استعداد للظهور بجميع الأسماء الإلهية على التمام ، ذاتية وصفاتية لأنه مخلوق على الصورة»[6].

وعليه يتضح لنا أن الأمير قد خاض طويلا في حديثه عن الإنسان الكامل ، و الإشارة إليه وقد استخدمه ضمن منظومة المفاهيم المعرفية التي استخدمه بها أستاذه ابن عربي ، فضمنه معاني شتى تتعلق حينا بالعبد في أوج ترقياته العروجية ، وأحيانا أخرى أحال به إلى الحقيقة المحمدية أو الكونية ، وأحيانا ثالثة جعله دليلا على الذات العلية ، لاسيما عندما ينتقل بهذا المفهوم درجة فيصوغه في صيغة تفضيلية "الإنسان الأكمل".

---

[1] –مونيس بخضرة، تاريخ الوعي مقاربات فلسفية حول جدلية ارتقاء الوعي بالواقع ، منشورات الاختلاف، ط(1)،س 2009،ص97.

[2] –عشراتي سليمان،الأمير عبد القادر مساجلات في قضايا اللغة و المعرفة و فقه الخطاب القرآني،دار العرب للنشر و التوزيع، بدط، 2002، ص147.

[3] –سورة الإسراء، الآية7.

[4] –الجزار أحمد محمود، الله و الإنسان عند الأمير عبد القادر–منشأ المعارف، ط1، 1999، ص66.

[5] – المرجع نفسه ،ص68.

[6] –الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد لقطع لسان منتقض دين الاسلام بالباطل و الالحاد ، الطاسيلي للنشر و التوزيع ، الجزائر ،ط1 ، 1989، ص92.

ويقول الأمير في هذا السياق : « إن الإنسان الكامل مظهر جامع لجميع الحقائق الإسمية التي تطلب العالم: أعلاه و أسفله جواهره و أعراضه ،ومظهر أيضا لجميع الحقائق الكونية ، فالمقولات العشر التي تجمع العالم كلها متفرقة في العالم مجتمعة في الإنسان الكامل »[1].

ويضيف الأمير أيضا معرفا الإنسان الكامل بالقياس إلى الخالق في قوله :« فللإنسان نسبتان نسبة يدخل بها إلى الحضرة الإلهية ، ونسبة يدخل بها إلى العالم ، فهو المقابل لجميع الموجودات قديمها وحديثها ، فالحق تعالى له القدم وماله دخل في الحدوث ، والعلم له الحدوث ، وماله دخل في القدم ، والإنسان له القدم وله الحدوث ، فهو منعوت بهما ، فلهذا هو رب وعبد ، عبد من حيث أنه مخلوق مكلف ، ورب من حيث أنه خليفة ، ومن حيث أنه مخلوق على الصورة الإلهية ، فهو يلتحق بالإله التحاقا معنويا»[2].

وبالتالي وجود الإنسان على الصورة الإلهية يكشف عن مكانته وجوديا مقارنة بغيره من الموجودات التي هي أجناس هذا العالم الكبير و أنواعه على اختلافها ، أو بالأحرى فالإنسان موجود على هذه الصورة بالذات بكمالها دون غيره بهذا الكمال ، لأن علاقة الله بالإنسان و علاقة هذا الأخير به، هي سوى علاقته تعالى بالعالم ذاته ، إذ العالم كله لا يقبل الألوهية ولا يحققها كما يحققها الإنسان خاصة ، و الأصل من خلق الإنسان هو أن الحق تعالى لما أراد الظهور في المسمى خلقا و عبدا و أن يرى جميع أسمائه و أن يعرفوه ويعبدوه ، ولقد تحقق هذا كله لما تم ترتيب العالم ترتيبا حكميا ، فأنشأ الله هذه الصورة الآدمية وسماها إنسانا لأنه بمنزلة الإنسان العين من الحق و قبل أن يوجد الإنسان على هذه الصورة كأن العالم أشبه ما يكون بجسم لا روح فيه ، فوجود الإنسان إذا هو المقصود بالذات من وجود العالم نفسه ، أو بعبارة أصح فالإنسان و إن جاء آخر الموجودات خلقا إلا أنه أفضلهم من جهة الوجود بالذات ، من حيث أن مرتبته هي الجامعة لكل مراتب الوجودية عدا المرتبة الأحادية وهي للذات الإلهية ، ذلك لأن كل المراتب الوجودية التي هي أجناس هذا العالم قد اكتملت بوجود الإنسان خاصة ، أو بعبارة أصح يمكن القول أن تسوية العالم قد تمت و تقدمت ليظهر عنه صورة نشأة الإنسان الكامل .

كما أن المقارنة بين الله و العالم من ناحية و الإنسان من ناحية أخرى تكشف عن حقيقة الدلالة الوجودية التي استحقها الإنسان دون غيره من موجودات هذا العالم بجملته و تفصيله ، لأن علاقة الله تعالى بالعالم ما هي عين علاقتها بالإنسان خاصة على الرغم من أن كل مخلوق على الصورة التي هي صورة الأسماء الإلهية ، فالإنسان الكبير هو العالم كله و الإنسان الصغير هو الإنسان الكامل ، وهو من هذه الحيثية بالذات هو روح العالم كله و علته و سببه ، وما سمي صغيرا إلا لكون صورته الجسمية قد اجتمعت فيها حقائق العالم بأسره ، وصورة العالم محتوية على صورته[3].

[1] –الأمير عبد القادر الجزائري،المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد، ج1، دار اليقظة العربيّة،ط(2)،س 1967، الموقف247، ص569.

[2] – عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر مساجلات في قضايا اللغة و المعرفة و فقه الخطاب القرآني، المرجع السابق، ص151.

[3] – الجزار أحمد محمود، الله و الإنسان عند الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص72.

وفي هذا الصدد يؤكد الأمير كذلك على دلالة الوجود في قوله : « أن الله خلق الإنسان الكامل له ، ليظهر به ، وخلق العالم للإنسان الكامل له ليظهر به ،أي للإنسان ، فالعالم مخلوق للإنسان ، والإنسان مخلقا له –تعالى–»[1].

ويقول أيضا في موضع آخر :« أن العلم غير الإنسان ، ولكنه مثل غير كامل ، العالم ليس بمثل كامل إلا بإعتبار دخول الإنسان في جملته ، فإن العالم إنما كمل بالإنسان الكامل وما كمل الإنسان بالعالم ، فالعالم مثل للحق –تعالى–، لأنه محل لظهوره بأسمائه العلى ، وحقائق نسبه الحسنى ، فكل حقيقة كونية كلية هي مظهر حقيقة إلهية لكل آية ، وكل حقيقة كونية جزئية هي مظهر حقيقة إلهية جزئية»[2].

أما من حيث علاقة الإنسان بالعالم يشير الأمير هنا قائلا: « لقد أوجد الإنسان على صورة العالم ، وجعله نسخة مختصرة من العالم ، حيث أمكن الكلام فيه ، فالمماثلة إنما هي بين الصورة الأولى التي هي صورة الحق –تعالى–وبين الصورة الثانية التي هي صورة الإنسان الكامل ، فيكون المعنى : ليس مثل مثله شيء ، فالمثل المنزه هو الإنسان الكامل ،إذ هو الأصل في إيجاد العالم ولو تأخرت صورته ، فالعالم كله بجميع أجزائه العرش وما حوى ، يماثل الإنسان ، والإنسان بمختصره يماثل العالم كله»[3].

وعليه يمكن القول أن الإنسان الكامل الذي من أسمائه أنه صورة الإله ، بأنه مستعد للظهور بجميع الأسماء الإلهية على تقابلها و تخالفها كما ظهر الحق لقول الأمير هنا :« أنه لما توجه الحق إلى خلقه بيديه ، فحمل جميع الأسماء الإلهية و الحقائق الكونية ، والعقل الأول لما توجه الحق إلى خلقه ، خلقه بأمره ، وهو "كن" فحمل علوم الكون إلى يوم القيمة ، فالإنسان الكامل هو المثل الأعلى للحق ، وهو مرآة الحق تعالى و مرآة العالم ، فمن رآه رأى الله تعالى ورأى العالم ، ومن عرفه عرف الله وعرف العالم »[4] .

والفرق بين الإنسان الكامل و الإنسان الحيوان : يقول هنا الأمير عبد القادر :«وصف الإنسان الحقيقي بالكامل ليس للإحتراز من الإنسان الحيوان فإن التمييز بينهما ظاهر بديهي ، حيث أن الإنسان الكامل له الظهور بالإقتدار التام وتتكون الأشياء عند قوله : كن ، أو قوله بسم الله يحي و يميت ويذل ويعزي ويعطي...، ومع هذا الإقتدار الذي أعطيه فهو في نفسه العبد الذليل الذي لا تشوب عبوديته ربوبيته بوجه ولا حال، لا يظهر لأحد بما أعطاه الله و خصه به من التصرف في العالم أعلاه و أسفله ، والإنسان الحيوان لا شيء له من هذا ، فلا مشاركة ولا مشابهة بينهما ، فلا التباس و إنما ذلك للإحتراز من الإنسان الناقص حسا ومعنى ، وهو الدجال فإنه يظهر الإقتدار ويعطي التكوين بقول "كن" مثل الإنسان الكامل ، يقول للسماء أمطري فتمطر و للأرض انبتي فتنبت واخرجي كنوزك فتخرجها ، تجيب

[1] –الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد،ج2، المصدر السابق ،الموقف248،ص155.

[2] –عبد الباقي مفتاح، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار و المعارف،ج1، مؤسسة الأمير عبد القادر،ط1،س 2005، الموقف38،ص157.

[3] – الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد، ج1،المصدر السابق، الموقف106، ص285.

[4] – المصدر نفسه –الموقف248–ص156.

دعوته الوحوش وجميع الحيوانات ، يمر على القوم فيدعوهم إلى عبادته ...فهو إنسان ناقص حسا ومعنى ، أما المعنى فلنقصه السعادة الأخروية، وما الحس فلأنه أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافئة ، فنقص خلقته اليمنى إشارة إلى عدم سعادته الأخروية في الدار الأخرى»[1].

وعليه فإنه من محظوظية الإنسان الكامل أن يصير محلا تتجسد فيه إرادة المطلق محل النفوذ و الإقتدار، ويضحى مصدر الأمرية، فرتبة الإنسان الحيوان من الإنسان الكامل رتبة النسناس و القرد ، فكل فرد من إفراد النوع الإنساني عنده قابلية الكمال الإلهي لكن ما كل أحد مستعد لذلك.[2]

ومن هنا يمكن القول أن الكمال الوجودي للإنسان قد تحقق إذا منذ الأزل بنسبيته إلى الحقيقة المحمدية من حيث أنها الروح الكلية،وهي إن كانت قد سرت في كل صور العالم علويه و سفلية على نحو ما يرى الأمير عبد القادر ، إلا أنها تكتسب دلالة خاصة بالنسبة للإنسان بالذات ، من حيث أنه هو الذي يحقق الألوهية التي لا يحققها العالم بكل أجناسه و صوره ، لأن الله له خلق الأرواح المهيمنة و العقل و النفس الكلية ، إلا أنهم دون مظهرية الإنسان الكامل من حيث نشأته و إيجاده.

وبهذا المفهوم بالذات يتميز وجود الإنسان منذ الأزل و يعلو في الوقت نفسه عن بقية موجودات العالم وبذلك يصح القول أنه وإن كان آخر المراتب من جهة الإيجاد و الخلق ، إلا أنه يعلو عليها من جهة الاستعداد و الصورة .[3]

وعل هذا الأساس يؤكد الأمير عبد القادر بأن الإنسان يحتل موقعا وجوديا في هذا العالم لا يماثله فيه موجود من موجوداته كائنا ما كانت صورته ، فهو وحده بوصفه حقيقة الموجودات ، فهي بهذا المفهوم باطنه وهو أيضا من هذا الوجه ظاهرها.

وعليه فإن الإنسان الكامل له العلو الوجودي منذ الأزل ، لما خلقه الله و فوض أمر المملكة إليه ، وجعل توجهه شرطا في إيجاد كل موجود، بل ليس هذا فقط و إنما له الأثر الكامل في جميع الممكنات و المشيئة التامة ، وبهذا المفهوم يمكن القول أنه لا يكون للإنسان وجودا مغايرا لموجودات العالم فقط، بل أن له ارتباطا وثيقا من جهة وجودها الأصلي منذ الأول ، لسريان حكمه في أقسام الوجود كلها ظاهرا و باطنا ومن ثمة فقد استحق بذلك المرتبة الوجودية الخلقية ، التي أوجبت له هذه الأخيرة أن يسجد له كل من استخلف له ،وفي هذا الشأن يؤكد الأمير قائلا أن :«وجود الإنسان على الصورة الإلهية لا ينصرف إلى صورة الذات الإلهية من حيثية الذات ، وإنما ينصرف إلى الصورة الكمالية للأسماء و الصفات الإلهية»[4].

[1] – عبد الباقي مفتاح، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار و المعارف،ج1،المرجع السابق، الموقف248، ص579.

[2] – عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر مساجلات في قضايا اللغة و المعرفة و فقه الخطاب القرآني، المرجع السابق، ص152.

[3] – الجزار أحمد محمود، الله و الإنسان عند الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص73.

[4] – المرجع نفسه، ص75 .

وهذا ما يدل في رأي الأمير عبد القادر على أن وجود العالم لأجل الإنسان خاصة ، من أجل أن تنكشف فيه كل الحقائق الألوهية بصفاتها الكمالية ،وعليه يمكن القول أن العالم هو الإسم الظاهر ، والإنسان سائر في هذا العالم ، جامعا بين الإسم الظاهر و الباطن فهو أشرف المخلوقات و أكملها ، فالإنسان الكامل في نظر الأمير هو الكون الجامع للحقائق الإلهية و الكونية ن فهو المثل الذي لا مثل له [1] .لقوله تعالى:[ليس كمثله شيء].[2]

-حقيقة النفس الإنسانية:

كل إنسان يمتلك بفعل كونه إنسانا الاستعدادات الضرورية لإلتقاط الحقائق في الحال التي توجد فيها ، لأن النفس حيث يوجد العلم هي بالنسبة لحقيقة الأشياء في ذات وضع المرآة بالنسبة للأشياء المتبدلة التي تظهر فيها [3].

ومن هنا يمكن التطرق لعرض حقيقة النفس الإنسانية عند الأمير عبد القادر ليكتمل بذلك تصوره لماهية الإنسان بوصفه مركبا من روح أو نفس و بدن ، فضلا عن ذلك فإن النفس الإنسانية عنده من المسائل المهمة التي هي فوق العقل بالنسبة إليه.

ومن ثمة يمكن القول أن النفس الإنسانية في نظر الأمير قد اعتبرت منذ القدم من أهم المشكلات الميتافيزيقية التي تعددت فيها آراء الفلاسفة منذ بدء تاريخ الفلسفة ، وهي بدورها في نطاق الفكر الفلسفي في الإسلام تكتسب أهمية لا تقل عن أهميتها في تاريخ الفلسفة ، وربما كان ما ورد بشأن النفس و الروح خاصة هو السبب وراء ذلك. لقوله تعالى :[ويسألونك عن الروح قل من أمر ربي وما أتيتم من العلم إلا قليلا][4].

بالإضافة إلى ذلك يؤكد الأمير بأن إجتهادات المتكلمين و الفلاسفة في بيان حقيقة النفس الإنسانية لم تتوقف ، فقد ذهب البعض إلى أن النفس الانسانية جوهر فرد متحيز، وقال آخرون أنها جسم لطيف متشبث بالجسم ، وذهب قوم آخر إلى أنها جوهر محدث قائم بنفسه غير متحيز ، مع العلم أن الأمير لم يشر إلى أصحاب هذه الأقوال المختلفة التي أورد بعضها في شأن حقيقة النفس الإنسانية ، إلا أن محطة هذه الأقوال التي أوردها يمكن تحديدها في طبيعة الجدل القائم حول النفس الإنسانية ،فإن كانت جوهر قائم بذاته متميز عن البدن أم هي عرض من الأعراض و حقيقة علاقتها بالبدن ،كل هذه الحقائق تمثل محاور الخلاف بين المتكلمين و الفلاسفة.

فالمتكلمين بصفة خاصة وكذلك الفقهاء يذهبون إلى أن النفس جسم ، من بينهم نجد الجبائي الذي يعد من شيوخ المعتزلة إلى أن الروح جسم لطيف ، وأنها غير الحياة ، ومن الفقهاء فقد ذهب ابن حزم إلى أن النفس عنده جسم طويل عريض عميق ذات مكان ، وهي متحيزة

[1] – عبد الباقي مفتاح، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار و المعارف،ج1،المرجع السابق، الموقف248، ص575.

[2] –سورة الشورى، الآية11.

[3] –برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، ترجمة ميشيل خوري، المؤسسة الوطنية للإتصال و النشر و الإشهار، ط2، 2001، ص339.

[4] –سورة الإسراء، الآية82.

و مصرفة للجسد ، ولئن كان هذا هو مفهومه عن النفس ، فهو عين مفهومه عن الروح فهما عنده اسمان مترادفان لمعنى واحد على حد قوله.

أما عند ابن رشد فالنفس صورة البدن وجوهر مستقل في نفس الوقت، وهذا يعني أنه لا وجود للبدن بدونها ، ولا يمكن للعقل تصوره للبدن إلا بها ، تماما مثل التمثال الذي لا يوجد إلا بصورته.[1]

وفي هذا الصدد يشير الأمير إلا أن النفس أو الروح هما شيء واحد ، بمعنى أنه حين يتحدث عن النفس يشير إليها على أنها الروح و العكس صحيح ، فحقيقة النفس هي الروح ، وحقيقة الروح هي الحق تعالى ، والنفس مخلوقة من نور واجب الوجود ، ولهذا فهي في أصلها جوهر روحاني شريف ، فقد حوت كل صفاته ما عدا الوجوب الذاتي ، ولكنها ارتبطت بالبدن ، وحوت من النقائص جميع ما كان في الوجود على حد قوله.[2]

وعليه يؤكد الأمير أن النفس الإنسان الناطقة المسماة باللطيفة الإنسانية و الروح الجزئية جوهر واحد غير متعدد ولا يقبل التجزئة و التبعيض وهو المدبر المتصرف في الجسم ، وله قوى و آلات جسمانية ، بها يعلم و يعمل الجزئيات وكل قوة من القوى الظاهرة و الباطنة تعمل بها النفس الناطقة.[3]

وبناءا عليه فالنفس الناطقة هي التي تعين ماهية الإنسان وهي التي تعطي لسائر قوى الجسم آلاته ووحدته ، لأن الأصل في الإنسان راجع لوحدة الجوهر ، وهي النفس الإنسانية المدبرة للجسم ، ولكن إذا كانت الروح أو النفس عند الأمير شأن واحد لابد من الإشارة إلى حقيقة هذه الروح إن كانت مخلوقة أم حادثة ، وهذا ما يتضح لنا جليا من خلال موقفين عند الأمير عبد القادر، فالموقف الأول عنده يذهب فيه إلى أن حدوث النفس يتأخر عن حدوث البدن أو بالأحرى أن للبدن أسبقية في الحدوث على الأرواح .[4] وهذا ما يفهم في قوله تعالى في خلق عيسى –عليه الصلاة و السلام–:[فنفخنا فيها من روحنا][5].

وعليه يؤكد الأمير بأن صورة عيسى عليه السلام مقدمة على النفخ في الروح ، وقال تعالى في خلق آدم عليه الصلاة والسلام :[فإذا سويته و نفخت فيه من روحي][6]، ويعني هنا أن تسوية الصورة مقدمة على نفخ الروح .

[1] – الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد،ج1، المصدر السابق، الموقف86، ص288.
[2] –الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد، المصدر السابق، ص127.
[3] – عبد الباقي مفتاح، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار و المعارف، ج2،المرجع السابق، الموقف315، ص256.
[4] – الجزار أحمد محمود، الله و الإنسان عند الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص85.
[5] –سورة الأنياء، الآية91.
[6] –سورة الحجر، الآية29.

أما الموقف الثاني يتجلى في قوله :« و الذي عندي أنهما متلازمان ، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وإن ورد في الصحيح ، في ذكر أطوار الخليقة للإنسان ، نطفة ثم علقة ثم مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، فيحتمل أن يكون المراد من نفخ الروح هنا ظهور أثار الروح ، وهو الحس و الحركة و التغذي».[1]

وعلى هذا الأساس يؤكد الأمير بأن نفخ في آدم عليه السلام بعد تصويره أي خلقه لا يدل على تأخر خلق الروح عن البدن ، ذلك أن ما ورد في الآية لا يفهم لا يفهم منه تأخر خلق الروح و إنما يدل على اتصال الروح أو النفس بالبدن و تعلقها به و لا أكثر من ذلك ، وهذا الرأي الذي قال به يختلف عما ذهب إليه ابن قيم الجوزية الذي أكد أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها.

وبناءا على ذلك يصح القول أن البدن و النفس أو الروح عند الأمير عبد القادر متلازمان في الخلق أو الحدوث دون سبق لأحدهما عن الآخر لأن الصورة يعني البدن وهي بغير الروح لا تكون والعكس صحيح فهما كل واحد.[2]

ويشير الأمير في هذا الصدد إلى قول المناوي شارح الجامع الكبير قائلا:« أن الروح الإنساني جوهر فرد قائم بنفسه متعلق أولا بروح قلبي يسري في البدن ، فيفيض على الأعضاء قواها ومع هذا هو غير متحيز ولا قابل لإشارة حسية ، فهو من الحقائق الإمكانية لا من الجواهر المكانية ، وإنما يتعلق بالبدن تعليق التدبير و التصرف من غير أن يكون داخلا فيه بالجزئية و الحلول ، لكن اشتغاله به كعشق طبيعي يرهقه إلى تدبيره مادام قابلا للتدبير و ليس من ضرورة عشقه له و تأثيره فيه أن يكون حالا فيه أو متصلا به ، فإن الولد إذا سقط في الماء تلقى أمه بالطبع نفسها في الماء إشفاقا عليه مع أن نفسها غير حالة في بدن الإبن ، وحيث جاز على نفس الأم أن تعشق الولد لأنه جزء من بدنها جاز أن تعشق الروح أصل البدن»[3].

وعليه يمكن القول أن النفس الإنسانية في نظر الأمير بإمكانها تحقيق أكبر قدر من الوظائف التي تشاركها فيه بعض النفوس الأخرى ، وتلك النفوس أيضا تشترك مع النفس الإنسانية في بعض الوظائف ، ومع ذلك يظل التمييز للنفس الإنسانية وظيفة تخصها دون بقية النفوس الأخرى ، فالنفس التي تحفظ نظام أجزاء الجماد تسمى نفسا جمادية ، أما إن كانت تتغذى و تنمو وتتوالد مثلا فتسمى نفسا نباتية ، فإذا كانت بالايضافة إلى ذلك تتوهم وتختار و تتخيل وتتحرك ، فحينئذ تسمى نفسا حيوانية ، أما إذا حصل كل ذلك للنفس وكانت تعقل و تفكر و تختار، فهي حينئذ المسماة بالنفس الناطقة ، وبهذا المفهوم فإن كل نفس من هذه النفوس تبطن فيها بعض الوظائف ، الأمر الذي يعني أن كل نفس باطنة في التي قبلها بالقوة ، وظاهرة عنها بالفعل[4]، على حد قول الأمير عبد القادر نفسه:« أن الصورة الإنسان تكون

[1] – الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد،ج1، المصدر السابق، الموقف229، ص526.

[2] – الجزار أحمد محمود، الله و الإنسان عند الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص86.

[3] – الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد، المصدر السابق، ص127.

[4] – الجزار أحمد محمود، الله و الإنسان عند الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص88.

روحها روحا نباتية ، بمعنى أنها تفعل ما تفعل روح النبات ، وهو النمو والتغذي لا غير ، وعندما يظهر في الصورة الإحساس و الحركة تكون روحا حيوانية ، بمعنى أنها تفعل فعل روح الحيوان وهو الحس و الحركة و التخيل ، وعندما تظهر منها الآثار التي لا تظهر إلا من الإنسان ، وهي الفكر و التدبير و نحوهما ، فهي إنسانية اختلفت أسماؤها بإختلاف ما يظهر عنها من الآثار ، زيادة و نقصانا ، وهي واحدة لا تتعد في ذاتها ، ولكن في صفاتها»[1].

ولكن يوضح الأمير في هذا الشأن أن النفس الإنسانية و إن شاركت النفس النباتية و الحيوانية في القيام بوظيفتي التغذي و النمو و شاركت النفس الحيوانية كذلك في وظيفة الإحساس و الحركة ، إلا أنها تزيد عنها بالقوة العاقلة و هي التي يكون فيها قوة التفكير و النظر، وبها تعلو و تتمايز في آن نفسه عن بقية النفوس ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى وهي الأهم فإن النفس الإنسانية وإن كانت تسمى تارة نباتية أو حيوانية أو عاقلة بحسب قيامها بهذه الوظائف ، إلا أن هذا لا يعني أنها في ذاتها قابلة للقسمة أو منقسمة ، لأن النفس أو الروح شيء واحد ، فالكثرة هنا ترتد إلى تعدد قواها ووظائفها ولا تقدح في الوقت نفسه في وحدتها ، لأن الروح أو النفس واحد ، يتعدد بتعدد القوى فهو واحد كثير.[2]

بمعنى أن الكثرة التي ترتبط بالنفس إذ تنصرف إلى تعدد قواها ووظائفها المختلفة ، ولا تنصرف غلى الكثرة في ذاتها ، لأنها واحدة في ذاتها و لكنها تتكثر في صفاتها ، وتتجزأ بالنسبة لوظائفها.[3]

وفي هذا الصدد يؤكد الأمير أنه بيدا أن النفس الإنسانية و إن كانت تتميز عن بقية النفوس بالقوة العاقلة ،إلا أن هذه القوة الأخيرة ليست هي وحدها التي تفرق نفس الإنسان عن بقية النفوس النباتية كانت أم حيوانية ، ذلك أن القوى الإدراكية للنفس الإنسانية تزيد في الإنسان عن غيره من الموجودات الحية الأخرى.

ويفصل الأمير عبد القادر حقيقة هذه القوى ووظائفها في الإنسان قائلا:« أن الصورة الإنسانية أكمل صورة و أفضلها من صور الملائكة الكرام ، وقد خصه تعالى بالقوة الخيالية التي يتصرف بها في الواجب و المستحيل فضلا عن الممكن و يحفظ بها المحسوسات بعد غيبتها عنه ، وجعل تعالى هذه القوة الخيالية محلا تجتمع فيه جميع المدركات ، ولذ سميت بالحس المشترك ، وهذا ما صح الحكم على المدركات مع بعضها البعض ،إذ كل قوة من قوى الإنسان لها إدراك يخصها لا تتعداه في العموم ، فلولا اجتماعها عند حاكم واحد لأدرك الجميع ما صح الحكم

[1] – الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد،ج1، المصدر السابق، الموقف229، ص528.
[2] – الجزار أحمد محمود، الله و الإنسان عند الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص88.
[3] – المرجع نفسه ، ص89.

عليها ، كقولنا هذا الأبيض حلو ، فإن الذائقة ما أدركت إلا الحلاوة لا غير ، و البصر ما أدرك إلا اللون ، وهو البياض لا غير ، والذي اجتمع عن إدراك الذوق و إدراك البصر ،حكم بأن هذا الأبيض حلو وهو السكر مثلا»[1].

وعليه فإن الأمير يؤكد بأن هناك قوة أخرى للنفس وهي القوة الخيالية ، وهي لها وظيفة مهمة ، فبها يخلق الإنسان من الصور ما يشاء ومتى يشاء ، وإن كانت هذه الصور التي يخلقها الإنسان بفعل هذه القوة الخيالية تبقى باطنة في خياله.[2]

وعلى هذا الأساس يتطرق الأمير إلى التفرقة في القوة الخيالية بين نوعين من الخيال:« أولهما الخيال المتصل و ثانيهما الخيال المقيد ، وهذا الأخير يسميه البرزخ الخيالي ، تظهر فيه الصور الجسمانية الكثيفة التي تقبل التجزؤ و التبعيض و الخرق و الإلتئام، وهي المركبة من العناصر صور مركبة لطيفة ، لا تقبل التجزؤ و لا الخرق و لا التبعيض ...ومنشأ هذه المرتبة البرزخية الخيالية مقدمة الدماغ ، هي التي تمسك صور المحسوسات عند غيبوبتها كما يرى الإنسان مثلا مدينة ثم يغيب عنها ، فإذا تذكرها رآها كما كان رآها، فيضن أنه رآها في موضعها في غير هذه المرتبة الخيالية، وهو ما رآها إلا في هذه المرتبة البرزخية الخيالية الدماغية ، والفرق بين البرزخ المسمى بالخيال المنفصل و البرزخ المسمى بالخيال المتصل هو أن المتصل يذهب بذهاب المتخيل كما هو الحال في أنواع السحر و السيمياء و نحوها كما قال تعالى:[يخيل إليه من سحرهم لأنها تسعى][3].

وهي في الحقيقة لا تسعى و إنما تسعى في الخيال المسحور بسبب السحر لا غير ، والخيال المنفصل لا يذهب بذهاب المتخيل له ، فإنه حضرته ذاتية قابلة لتجسيد المعاني و الأرواح»[4].

ومن كل هذا يتضح لنا أن للإنسان المعرفة الكاملة من جهة صورته الباطنة تارة ، ومن جهة قلبه تارة أخرى ، و إن كان الأمر يتوقف على تزكية النفس ورجوعها إلى صورتها الأولى أو جوهرها الأصلي ،وعلى أن يكون معلوما في الوقت نفسه كما يقول الأمير عبد القادر أن تزكية النفس لا يراد بها إعداد الطبيعة البشرية و محوها رأسا كما يتوهم البعض لأن ذلك محال،من حيث أن طينة الإنسان معجونة بها أو مركبة بها و إنما المراد فقط عزل الطبيعة البشرية ومنعها عن الاسترسال في الأمور السفلية وليس هذا هو المهم ، بل الأهم عند الأمير أن تحقيق هذا كله مرهون بالقوة العاقلة وحدها لأن الله ما أنعم على الإنسان بالعقل إلا ليقابل به القوة الشهوانية و يردها إلى حكم الشرع و العقل معا ، ومن هذا الوجه الأخير يمكن القول أنه لا تكون المعرفة الإنسانية في مفهوم الأمير مردودة إلى صفاء النفس و تجردها لأن كل قوى النفس الإنسانية تسهم في سبيل الوصول إلى المعرفة الكاملة و التي تليق بالإنسان بحكم خلقه على الصورة الإلهية.

[1] – عبد الباقي مفتاح، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار و المعارف، ج2، المرجع السابق، الموقف342، ص317

[2] – الجزار أحمد محمود،الله و الإنسان عند الأمير عبد القادر،المرجع السابق،ص90.

[3] –سورة طه–الآية66.

[4] – الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد، ج2، المصدر السابق، الموقف 429، ص541.

ومن ثمة فالكمال الحقيقي في حصول المعرفة هو الذي يتحقق بجمعية العقل و الروح معا ، لأن العقل إذا ما امتزج بالروح امتزاجا معنويا ظهرت العلوم حينئذ في النفس[1].

ومن هنا أمكن القول أن الإنسان الكامل في نظر الأمير عبد القادر هو روح العالم ، والعالم الجسد ، فبالمجموع يكون العالم كله هو الإنسان الكبير و الإنسان فيه ، وإذا نظرت في العالم وحده دون الإنسان وجدته كالجسم المسوي بغير روح ،وفي هذا الصدد يقول الأمير عبد القادر :« فبالإنسان الكامل ظهر كمال الصورة الإلهية في العالم ، فهو قلب لجسم العالم الذي هو عبارة عن كل ما سوى الله تعالى و الحاصل أنه ما كان العالم على صورة الحق على الكمال و التمام حتى وجد الإنسان فيه بجسمه ، فحينئذ كمل العالم فهو الأول بالرتبة و الآخر بوجود جسمه ، فالعالم بالإنسان على صورة الحق على الكمال ، والإنسان دون العالم على صورة الحق على الكمال ، فكان العالم مستعدا بالإستعداد الكلي،فكان كمرآة من حيث أنها مرآة، لكنها غير مصقولة ولا مجلوة ولا مزينة ، فلا تناسب نظر الملك وجهه فيها مثلا، فلما زينت بوجود جسم الإنسان الكامل آدم صارت قابلة للنظر الملك وجهه فيها،وذلك عبارة عن الإستعداد الجزئي الذي هو رتبة أظهرها الإستعداد الكلي، ولقد خص آدم بالذكر لأنه أول موجود من هذا الجنس.

ومن ثمة فالأمير يشير إلى أن آدم ومن ورث الإنسانية من بينه بأن كمالهم مستعار من محمد صلى الله عليه و سلم، وهو يمثل الإنسان الكامل بالأصالة و الحقيقة.

بمعنى أن مرتبة الإنسان الكامل هي لآدم عليه السلام ومن ورث مرتبته من أولاده، لكونه عليه السلام أول موجود من هذا الجنس، وإلا فالإنسان الكامل هو محمد صلى الله عليه و سلم.[2]

وفي هذا الصدد يقول الأمير عبد القادر:« أنه لا خصوصية لآدم عليه السلام بالخلق على الصورة الإلهية ، بل كل إنسان كامل من أولاده إلى يوم القيامة ،مخلوق على الصورة ، ومن كان إنسانا حيوانا فليس مخلوقا على الصورة الإلهية ، وإن كان له قابلية واستعداد لذلك ... فلا يكون مخلوقا على الصورة الإلهية إلا إذا كان إنسانا كاملا بالفعل لا بالقوة و الصلاحية ، والمراد بالصورة مشاركة الإنسان الكامل للحق تعالى عين هوية الإنسان الكامل ، كآدم التي بها هو هو ، وحقيقته التي هو حق بها ، فظاهر الإيمان صورة خلقية كونية ، وباطنه هوية الحق غير محدود للصورة»[3].

[1] – الجزار أحمد محمود، الله و الإنسان عند الأمير عبد القادر،المرجع السابق،ص94.

[2] – الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد،ج2،المصدر السابق، الموقف367، ص559

[3] – عبد الباقي مفتاح، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار و المعارف، ج2، المرجع السابق، الموقف367، ص546.

ويضيف قائلا: « ولهذا ما عثر أحد من علماء المتكلمين و الحكماء المتقدمين على معرفة النفس و حقيقتها إلا الإلهيون من الرسل و الأكابر من الصوفية»[1].

وعليه يتضح لنا أن الإنسان في نظر الأمير عبد لقادر يعد من أفضل مخلوقاته عز وجل لماله من القدرة على تحصيل الكمال بالعلم مما يسمح للإنسان من تحقيق إكتمال ذاته،[2] هذا ما عبر عنه ابن عربي من خلال إشارته إلى إنسان الكامل على أنه ماهية كاملة تحتوي في مضمونها على كل ما هو إلهي قديم و كل ما هو مخلوق حادث معا ، فهو يعد الإنسان الأسمى الكامل من الناحيتين اللاهوتية و الناسوتية ، ذلك لأنه يمثل همزة وصل و حلقة أساسية بين الله و العالم بإعتباره خليفة عن الله فيه تتجلى الألوهية و تستمر خلال العصور .[3]

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن رحلة الأمير عبد القادر الروحية، هي رحلة ذلك المنتشي الغائب المسكون بمشاهدات مستوحاة و أن بحثه عن المطلق تكشفه روح الإنسان الذي يستجيب بجهاده الداخلي إلى أوامر الله ، فهو بذلك عميق بتدبره يحركه هذا النفس الشعري[4] و تحدوه تلك الروح فبطلاقته الشعرية الإنسانية جعلته يقدر الفرد و يكرمه ، ويغضب كثيرا كلما رأى مسا بكرامته أو حطا من قيمته أو نيلا من حقوقه[5].

[1] – الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد،ج2،المصدر نفسه ، الموقف358، ص471.

[2] –سيمون خديس، الأمير عبد القادر(رجل دولة، مخطط حربي ، فيلسوف و متصوف) ، في مجلة سنة الجزائر في فرنسا،العدد6، 2003، ص37.

[3] – عبد الرحمن بدوي، الإنسان الكامل في الإسلام ، وكالة المطبوعات ، ط2 ، 1976 ، ص 67.

[4] –فريد قاسي، ، أعمال النّدوة العلمية (ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر)، عدد 1427، س 2006، ص117.

[5] –محمد الشريف سحلي، الأمير عبد القادر فارس الإيمان، ترجمة محمد يحياتن، طبع المؤسسة الوطنية للإتصال و النشر، بدط، 2008، ص31.

قائمة المصادر و المراجع :

- القرآن الكريم

1- الأمير عبد القادر الجزائري،المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد، ج1، ج2، دار اليقظة العربيّة،ط(2)،س 1967.

2 -الأمير عبد القادر الجزائري، المقراض الحاد لقطع لسان منتقض دين الاسلام بالباطل و الالحاد ، الطاسيلي للنشر و التوزيع ، الجزائر ،ط1 ، 1989.

3- مونيس بخضرة،تاريخ الوعي مقاربات فلسفية حول جدلية ارتقاء الوعي بالواقع ، منشورات الاختلاف، ط(1)،س 2009.

4-عشراتي سليمان،الأمير عبد القادر مساجلات في قضايا اللغة و المعرفة و فقه الخطاب القرآني،دار العرب للنشر و التوزيع، بدط، 2002.

5-الجزار أحمد محمود، الله و الإنسان عند الأمير عبد القادر-منشأ المعارف، ط1، 1999.

6-عبد الباقي مفتاح، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار و المعارف،ج1، ج2 ،مؤسسة الأمير عبد القادر،ط1،س 2005.

7-برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، ترجمة ميشيل خوري، المؤسسة الوطنية للإتصال و النشر و الإشهار، ط2، 2001.

8- عبد الرحمن بدوي، الإنسان الكامل في الإسلام ، وكالة المطبوعات ، ط2 ، 1976.

9-محمد الشريف سحلي، الأمير عبد القادر فارس الإيمان، ترجمة محمد يحياتن، طبع المؤسسة الوطنية للإتصال و النشر، بدط، 2008.

10-سيمون خديس، الأمير عبد القادر(رجل دولة، مخطط حربي ، فيلسوف و متصوف) ، في مجلة سنة الجزائر في فرنسا،العدد6، 2003.

11- فريد قاسي، أعمال النّدوة العلمية (ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر)، عدد 1427، س2006.